ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Shaima Iyad Mahmoud

Tikrit University - College of Education for Humanities - Department of Arabic Language

Muhammad Khalil Ibrahim/
Tikrit University/ College of Arts

Abd Mahmoud Abd
/Tikrit University/College of Arts

* *Corresponding author: E-mail* :
07722858090
shaimaa.ayad@tu.edu.iq

Keywords:
Disease,
cause,
psychological crisis,
medicine

A R T I C L E I N F O

Article history:

Received	17 Sept 2023
Received in revised form	20 Nov 2023
Accepted	23 Nov 2023
Final Proofreading	8 May 2024
Available online	9 May 2024

E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

The Psychological Motive in the Duality of Disease and Medicine in the Abbasid Era

A B S T R A C T

Poetic creativity is not devoid of incentives and motives that make the poets creative in describing their reality, or what they intend to discuss, especially when it relates to the psychological or physical pains they endure. It may also reflect what they seek to glorify in their poetry, stemming from their personal and realistic experiences. The primary psychological incentive for this creativity is the disease caused by psychological distress. This ailment intensifies and subsides in accordance with the severity of psychological pains or their absence in the individual. It is harmonized with their psychological feelings, which paint the picture of their suffering in poetry, attempting to obtain relief through their complaints, descriptions, or lamentations. This desire and aspiration are driven by the longing for something they have been deprived of in an influential environment.

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.31.5.2024.13

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

الباعث النّفسيّ في ثنائيَّة الدَّاء والدواء في شعر العصر العبَّاسي

شيماء إياد محمود/ جامعة تكريت / كلّية التربية للعلوم الانسانية
محمد خليل ابراهيم/ جامعة تكريت / كلّية الآداب
عبد محمود عبد/جامعة تكريت / كلّية الآداب

الخلاصة:

لم يكن الإبداع الشعريّ عند البعض دون بواعث ودوافع تجعل الشاعر مبدعًا في وصف واقعه، أو ما رام الحديث عنه، لا سيَّما ما يناله هو من آلام نفسيَّة أو جسديَّة، أو ما أراد أن يتغنَّى به في شعره جرَّاء

تجاربه الشخصيَّة والواقعيَّة، وكان الباعث النفسيّ أوّل هذه الدوافع، إذ إنَّ الداء الذي يسببه التأزم النفسيّ يشتدُّ ويخبو حسب شدّة الآلام النفسيَّة أو ضعفها عند صاحبها، فتتناغم مع شعوره النفسيّ الذي يرسم صور أدوائه بشعرٍ يحكي الآلام ويحاول استجلاب الدواء عن طريق شكواه أو وصفه أو بكائه، رغبةً وطمعًا في حصوله على شيء حُرِمَ منه في بيئة مؤثرة فيه. وأن المتأمل في أشعار العصر العباسي , يجدها مزحمة وزاخرة بالثنائيات الضدية التي صنعت الباعث النفسي ,ةوأن الباعث النفسي هو الذي جعل الشاعر يكتبها . ورا كلمة تكملة فامتزجت هذه الثنائيات بأساليبها البلاغية , فشغلت الطباق تارة والتقابل تارة والترادف تارة أخرى , وكان كلام الشعراء موزونآ منسقآ معبرآ .

الكلمات المفتاحية: داء ، باعث، التأزم النفسي، دواء

المقدمة:

منذ خلق الله الإنسان جعله يتعرَّض لعوارض صحيَّة تفقده حياته أو تسبّب له أدواءً في جسده أو نفسه وروحه.. فالأولى تسمَّى الأدواء الجسديَّة، والثانية هي الأدواء النفسيَّة، ولكلٍّ أعراضُها وآثارها... فكما تعتري الجسد عوارض اضطرابات عضويَّة مُؤلمة، كذلك تعتريه عوارض اضطرابات في نفسه وروحه وقلبه وعواطفه ومزاجه؛ تسبِّب له الآلام النفسيَّة أو التأزُّمات الروحيَّة، فيحزن ويكتئب ويأس ويبكي ويضطرب.

وإنَّ الأخلاق الذميمة في الإنسان تُعدُّ من الأدواء والعلل النفسيَّة التي تتعلَّق بالشخصيَّة وصحّتها، وعلى رأس هذا الأخلاق الذميمة البُخل، فكما قال سيدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم: (أيُّ داءٍ أدوى من البخل؟!) (أخرجه البخاري في "الأدب المفرد": 296)، وكم شغل هذا الخلق الكتَّاب والشعراء فكتبوا في أهله وفي المُتَّصِفينَ به، وكان كتاب "البخلاء" للجاحظ من أهمّ المُتحدّثين عن هذا الخُلُق، ثُمَّ الشعراء الذين ذمُّوا بعضهم أو غيرهم بهذا الخلق.

وإنَّ ثنائيَّة "الداء والدواء" كالألفاظ المُتصاحِبة، فإنْ ذُكِرَ الدَّاء يُستَفْسَرُ عن الدواءِ، وإنْ ذُكِرَ الدواءُ يستفسر عن دواعيه وسبب تناوله.

هذه الثنائيَّة المُتضادَّة (الدَّاء والدواء) ازدحمت ألفاظها ومرادفاتها في شعر العبَّاسيين، إذ هو عصرٌ يضجُّ بالتَّرفِ والحضارةِ والسَّعَةِ والفنون، كما يضجُّ بالاضطرابات السياسيَّة والاجتماعيَّة والمذهبيَّة، فكانت هذه الثنائيَّة ظاهرةً ترسم من خلال الأبيات الشعرية التي تكون فيها الواقع الذي كان يُعايشه الناس، ومنهم الشعراء إذ ذاك. فكَما كانت أحوال الكثيرين في ترفٍ وغِنى كان في المُقابل الكثيرون يُعانون العَوَزَ والفقر والحاجة، وكما كانت أحوال الكثيرين في اكتفاءٍ وشِبع عاطفيّ ونَعيم.

كان في المُقابل هناك مَنْ يَشكو الجوع العاطفيّ والتأزُّمَ النّفسيّ العاطفيّ أو المزاجيّ، أو يَشكُو ألم الفقد أو الهجر أو السجن أو الحسد والحقد، وكلّ هذا كان يَستَدْعِي وجود هذه الثنائيَّة فيمن بَرَعَ في الشعر وزوَّده الله بِمَلَكَة الفَصَاحَةِ وقول الشعر أو النثر.

وإنَّ الشعر لا يُبدعُ قائلهُ إلَّا نتيجة بواعث أو دوافع، فيكون الباعث هو الحامل والمثيرُ لفعلٍ أو قول، وهو الذي يُشكِّل الانفعالات الخطابيَّة والعاطفيَّة؛ فيكون الشعر عند هذا أو ذاك مُتعلِّقًا بالمُثيرات أو الدوافع المُحيطة به.

وكما أنَّ للشعر بواعث ودوافع لقوله –وعلى رأسها البواعث النفسيَّة– كذلك فهو يؤثِّرُ في النفوس والعواطف والأرواح: ((وللشعرِ تأثيرٌ في النفوس، إذ يستعطفُ قلب الكريم، ويستميل قلب اللئيم، لِمَا له من قدرة على صياغة الأحاسيس)) (ابن عبد ربّه، العقد الفريد: 274/5).

وللشعر أيضًا أثرٌ كبيرٌ في قائله وفي المتلقّي الذي قد يكون ممدوحًا أو مألومًا أو مكلومًا أو بحاجة لكلمات تريحه وتهدِّئُ داءَه وألمه، وهذا ما قاله الشعراء من قبل، ممَّا يؤثره الشعر فيهم، يقول الأعشى (ديوان الأعشى، تحقيق محمد محمود حسين، دار النهضة، بيروت، ط1972/2م: ٢٨٥):

والشـــعرُ يســـتنزلُ الكـــريم كمـــا اســـ تنـــزَلَ رعـــد الســـحابِ السُّـــبلَا

فالشعر يبعث على تكريم قائلِه، لما له من أثر في نفسيَّة المتلقّي.

وما زالت النفس البشريَّة تشغل بال الكثير من العلماء –قديمًا وحديثًا– بل أصبحت عِلْمًا يُدْرَس وينهل منه دارسوه فصار اسمه علم النفس الذي يدرس ماهية النفس وتأثراتها بما حولها.

والنفس هي ((الروح، وما يكون به التمييز، والنَّفس الدم، والنَّفس بمعنى عند وذات، والنَّفس الجسد)) (لسان العرب، ابن منظور، (نفس): 320/14).

وقد وردت لفظة (نفس) في القرآن الكريم إحدى وستين مرة(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ط2015/10م: 931)، في خمس وعشرين آية، نأخذ قوله تعـــالى: ﴿ الْمُرْسَلَاتِ النَّبَإِ النَّازِعَاتِ عَبَسَ التَّكْوِيرِ الِانفِطَارِ الْمُطَفِّفِينَ الِانشِقَاقِ الْبُرُوجِ الطَّارِقِ الْأَعْلَى الْغَاشِيَةِ الْفَجْرِ ﴾ [الأنبياء: 35]، و((المراد بالنفس النفوسُ الحالَّة في الأجساد كالإنسان والحيوان، ولا يدخل فيه الملائكة، وهو اصطلاح الحكماء وهو لا يطلق عندهم إلَّا مُقيدًا بوصف المجرَّدات))(التحرير والتنوير: 64/17).

يقول **علي الجرجاني(علي** بن محمَّد بن علي الشريف الحسني **الجرجانيّ** (ت816هـ): ولد في جرجان وتوفي في شيراز، فلكيٌّ فقيه، لغويّ، تلقَّى العلم على شيوخ العربيَّة، من مؤلفاته: "التعريفات"،

"رسالة في تقسيم العلوم". [الأعلام للزركلي: 7/5]): ((النفس هي الجوهر البخاريّ اللطيف الحامل لقوة الحياة والحسّ والحركة الإراديَّة))(التعريفات، علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الريان، 1938م: 312)، وهذا التعريف يُشبه قول الفلاسفة والعلماء أنَّ النفس جسم نوراني لطيف مداخل للبدن، وقد تحدَّث **الغزالي(الغزالي** (ت505هـ): محمد بن محمد الغزالي الطّوسي، أبو حامد، حجّة الإسلام: فيلسوف، مُتصوّف، له نحو مئتي مُصنَّف. مولده ووفاته في طوس بخراسان، من مؤلفاته: "إحياء علوم الدين"، "تهافت الفلاسفة"، "الاقتصاد في الاعتقاد"، "معارج القدس في أحوال النفس"، "المنقذ من الضلال"، "المستصفى من علم الأصول"... [الأعلام: 22/7]) عن النفس وسلوكاتها التي تبعث صاحبها إلى التّوبة، أو إلى النّدم، أو إلى العشق والحبّ، أو إلى الغيظ والغضب.. فاعتبَرَ أنَّ النفس الإنسانيَّة هي الباعث على السلوك الذي يتعلّق أو يعتمد على الإدراك العقليّ، أو الحسّيّ، كالتفكير والانتباه والتخيُّل والاستدلال والرؤية، ويعتمد على الجانب الوجدانيّ (كالشعور باللذة، أو بالألم والفرح والغضب والحزن والخوف..)، أو يعتمد على الجانب النزوعيّ كالدوافع والميول والبواعث التي تبعث على الكلام وعلى العادة والرغبة..

وإنَّ أيَّ متأمل في أشعار القرن الرَّابع الهجريّ، يجدها مزدحمة وزاخرة بالثنائيَّات الضّدّيَّة التي صنعت الباعث النّفسيّ، أو أنَّ الباعث النفسي هو الذي جعل الشاعر يكتبها، فامتزجت هذه الثنائيَّات بأساليبها البلاغيَّة، فشغِلت الطباق تارة والتقابل تارة والترادف أخرى، وكان كلام الشعراء موزونًا منسَّقًا مُعبِّرًا.

وقد تحدَّث **حازم القرطاجنّيّ(القرطاجنّي** (ت684هـ): حازم بن محمَّد بن حسن،أديب من العلماء، من أهل قرطاجنّة (بشرقي الأندلس)، ثُمَّ هاجر إلى مراكش، من مؤلفاته: "مناهج البلغاء وسراج الأدباء"، "ديوان شعر صغير".. [الأعلام: 159/2]) في شرح البواعث النفسيَّة والآثار التي تتعلَّق بأحوال النفس، حين أفاض في حديثه عن الشاعر وإبداعاته والمُحفّزَات التي تهيّج خواطره في قوله الشعر، فيكرِّر مقالته الشهيرة أنَّ أغراض الشعر النفسيَّة تكون في ((إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده))(منهاج البلغاء وشرح الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن خوجه، تونس، 1966م: 341). ويُؤكِّد على ((من يريد جودة التصرُّف في المعاني وحُسْن المذهب في اجتلابها والحذق بتأليف بعضها إلى بعض أن يَعرِفَ أنَّ للشعراء أغراضًا أُوَل هي الباعثة على قول الشعر، وهي أمور تحدث عنها تأثُّرات وانفعالات للنفوس، لكون تلك الأمور مما يُناسبها ويبسطها أو ينافرها ويقبضها، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالسِّرَّة والرجاء، أو يقبضها بالكآبة والخوف))(منهاج البلغاء وشرح الأدباء، 11).

المطلب الأوَّل: باعث المزاج النفسيّ

هناك قوَّةٌ خفيَّةٌ تتجاوز ما عند البشر فتؤثِّر فيهم: ((عندما تنتهب نفسَ الشاعر الآلامُ يجد عِوضًا عنها تلك اللّذَّة التي يستمتع بها وهو في نشوة الوحي، وفي هذه النشوة يكمن مرض الشاعر ودواؤه، وهذا يعني أنَّه بسبب تلك الآلام كان الوحي، ومع الوحي كانت النشوة؛ فالمعاناة كانت السبيل إلى الوحي؛ أي الإبداع، وهو وسيلةً لإخضاع تلك الآلام والتلذذ بها، فلولا الآلام ما كان الوحي، ولولا الوحي ما كانت اللذة))(التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة، بيروت: 29–30).

وإنَّ المزاج النفسي له أثر واضح في الشعراء، وإنَّ كل مزاج له تأثير معيَّن في الشاعر، فنفسيَّة الفارس في قول الشعر هي غير نفسيَّة العاشق في قول الشعر. ونفسيَّة من يعيش ببيئة صحراويَّة غير من يعيش ببيئة حضريَّة مدنيَّة، ومن يعيش في ترف وثراء غير الفقير، ونفسيَّة الحزين غير نفسيَّة السعيد أو الملتذّ بأمرٍ يُسعده، كذلك نفسيَّة المريض غير نفسيَّة الصحيح، فذاك يعاني آلامًا تُؤثِّرُ في مزاجه، وهذا صحيح يجيد الشعر بدافع المدح أو التغزُّل أو الحماسة، كذلك قيل عن الشعراء القدامى: ((كفاك من الشعراء أربعة، امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب))(العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط4/1972م: 186/1).

وقد أشارَ أبو هلال العسكري إلى أهمّيّة الصلة بين نفسيَّة الشَاعر وتهيئتها لقول الشعر، وبين جودته: ((إذا أردتَ أن تضع كلامًا فأخْطِرْ معانيه ببالك واعمل ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيتك الفتور وخانك الملاك فأمسك، فإنَّ الكثير من الملال قليل، والنفيس مع الضجر خسيسٌ))(كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم– محمد علي البجاوي، دار الفكر العربي، بيروت، ط2/1971م: 139).

ولو أخذنا من الشعراء الذين كان الباعث النّفسيّ دافعًا عندهم لقول الشعر، أبا الفرج محمد بن أحمد الغسَّاني الدمشقي الملقب بـ**الوأواء الدمشقيّ(الوأواء الدمشقي**، أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني الدمشقي (تـ370هـ): نشأ في دمشق فقيرًا بائِعًا للخضار، وكان يُنادي بصوت يشبه صياح ابن آوى فسمي الوأواء، لازم سيف الدولة، شاعرٌ غير مكثر. [يتيمة الدهر: 272/1]) ، كان شعره حسنَ التشبيه منسجم اللفظ عذب العبارة حسن الإشارة؛ ولذلك شاع كثير من أشعاره على ألسنة الناس من ذلك قوله(يتيمة الدهر: 205/1):

بـــاله ربِّكُمـــا عُوجـــا علـــى سَـــكَنِي ... وعاتِبَـــاهُ لعـــلَّ العَتـــبَ يَعطِفُـــه

وعرضـــا بـــي وقـــولا فـــي حـــديثكما: ... مـــا بـــالُ عبـــدك بـــالهجران تتلفـــه؟

فـــإن تبسَّـــم قـــولا عـــن ملاطفـــةٍ: ... مـــا ضـــرَّ لـــو بوصـــالٍ منـــك تســـعفه

وإن بـــدا لكمـــا مـــن ســـيدي غضـــبٌ فغالطـــاه وقـــولا: لـــيس نعرفـــه

وهذه الأبيات تعبّرُ عن مزاج الشَّاعر المُضطرب الذي يجعل الثنائيَّات المُتضادَّة مُعبّرةً عن استعطافِهِ لسيّدِه وللناس، فقد كان هُجران الناس له بمثابة ألم أو داء يُصيبُه ويُتلِفُه، والوصال يشفيه ويُسعِفُه، فكانت هذه الثنائيَّات (العتب– العطف) (الهجران– الوصال) دلالة على ألمه من الهجران، وفيها دِلالةٌ أخرى على شفائه وإسعافِه بالوصال.

وقد كان الوأواء الدمشقيّ ذا مِزاج مُضطرب، وكانت الثنائيَّات الضدّيَّة ترتسِمُ في ألفاظِه؛ لتصوغَ رُسومًا يُحوّلُها إلى معانٍ حسّيَّة، فيُوصِلُها للمُتلقّي بفنّ وبراعةٍ وسبكٍ جميل، وقد كانَ بائعًا للبطيخ والفواكه في دار البطيخ بدمشق، ((ما زال الوأواء يُشعِر حتَّى جادَ شِعرُه وسار كلامه ووقعَ فيه ما يروقُ ويشوقُ ويفوقُ حتَّى يعلو العيوقَ))(م.ن: 334/1. العيوق: نجم أحمر مضيء).

ومن الشعراء الذين اصطبغ شِعرُهم بمزاجٍ مُضطرب نتيجةَ واقعه الأليم، فكانت قصائدُه تحتوي على الكثير من الكلمات التي ينبو عنها السمع لبذاءتها، وهي إن دلَّت على أمرٍ تدلُّ على سوءِ المَعشَر وقبحِ المزاج، ألا وهو **أحمد بن الحجاج (ابن الحجّاج)**: أبو عبد الله بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد، يُطلق عليه الكاتب الشاعر. [وفيات الأعيان: 168/2–171])، حيثُ عمل محتسبًا في بغداد ثُمَّ عزل من عمله، وكان يتواصل مع كبار الدولة ويمتدحهم ليعطوه وليعيش في كنفهم مثل الوزير المهلبي(الوزير المهلّبي، أبو محمَّد الحسن بن محمَّد بن هارون الأزدي من وَلَد المُهلَّب بن صفرة (ت352هـ): كان وزير مُعزّ الدولة، وهو جوادٌ مُقرَّبٌ للعلماء، أديبٌ بليغ وشاعر. [سير أعلام النبلاء: 198/16]) ، وعضد الدولة(**عضد الدولة**، أبو شجاع فناخسرو، ابن السلطان ركن الدولة حسن بن بويه الديلميّ (ت370هـ): ملك العراق وفارس، بعد عمّه عماد الدولة، وهو نحويٌّ أديب، جبَّار. [سير أعلام النبلاء: 250/16])، وبهاء الدولة(**بهاء الدولة**، أبو نصر أحمد بن عضد الدولة بن بويه (ت443هـ): ملك العراق. [سير أعلام النبلاء: 186/17]) ، وابن العميد(**ابن العميد**، أبو الفضل محمَّد بن الحسين (ت349هـ): من أئمّة الكتابة، تقلَّد ديوان الرسائل عند بني العبَّاس، ثُمَّ صار وزيرَ رُكن الدولة البويهيّ، ثُمَّ لابنه عضد الدولة، لقَّبه الثعالبي بـ"الجاحظ الثاني"، من مؤلفاته: "ديوان الرسائل"، "المذهب في البلاغات"... [وفيات الأعيان: 110/5؛ يتيمة الدهر: 2/3–20])، وغيرهم.. وقد كان فاحشًا ماجنًا ظريفًا ((وامتاز شعره بالكثرة حتى قيل: إنَّ ديوانه يقع في عشر مُجلّدات))(وَفَيَات الأعيان وأبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة العربيَّة، القاهرة، 1950م: 327)، وقد قال عنه الثعالبي ((إنَّه من سحرة الشعر وعجائب العصر، وقد اتّفق من رأيته وسمعت به من أهل البصرة في الأدب والشعر على أنَّه فرد زمانه في الفئة التي شهر بها...))(يتيمة الدهر، الثعالبي: 35/3).

ومن أبياته حين تأخَّر في الحضور إلى رئيسٍ، فكتب إليه يسأله عن حاله في تأخره فكتب إليه يقول ويشكو مُضطربًا(م.ن: 63/3. الرسم: الإيضاح والتبيان، الإخلال: عدم الوفاء بالعهد):

سـألتَ يـا مـولاي عـن قصـتي ... ومـا اقتضـى بالرسـم إخلالـي

ليسـت بجسـمي علَّـةٌ تشـتكي ... وإنَّمـا العلَّـة فـي حـالي

وذاك داءٌ لـم تـزل ضـامنًا ... مـن سـقمه برئـي وإبلالـي

فهو يشكو له حاله ويردُّ عليه شِعرًا واصفًا أنَّه ليس مريضَ جسمٍ أو عليلَ جسدٍ، فاستعمل الثُّنائيَّات هنا للتعبير والدلالة عمَّا أصابه في مزاجِه ونفسيّته (العِلة– داءٌ– عِلة– سُقم– بُرء– إبلال أي شفاء). وقال أيضًا(يتيمة الدهر: 65/3):

خَليلـيّ قـد اتّسـعت محنتـي ... علـيَّ وضـاقت بهـا حيلتـي

تحيّفنـي ظالمًـا غاشـمًا ... وكـدّر بعـد الصـفا عيشـتي

وكنـتُ مليحًـا أروق العيـو ... ن أيضًـا فقـد قبّحـت خلقتـي

وقوَّسَـني الهـمُّ حتـى انطويـت ... فصـرتُ كـأنّي أبـو جـدّتي

فنراهُ هنا يُخاطب خلَّانه على عادة شعراء الجاهليَّة في بدئهم بـ"خليليّ" فيشكو لهما داءَهُ وطول بُؤسه ومحنته واتساعها، مع ضيق حيلته وقلّة فكرته، فهو الذي تكدَّر بعد أن عاش فترةً صافي العيش هانئه، وكانت تروق العيون بمنظره وبجماله وفتوته، فاستعمل الثنائيَّات الضدّيَّة ليدُلَّ على حاله السَّابق وما آلَ إليه واقعُه (اتسعت– ضاقت)، (كدّر– صفا)، (مليحًا، يروق– قبيح الخلقة)، فيشكو من دائه الذي يتمثل بُبؤسه وهمّه وسِنِّه، مع شكاتِه من دائه النّفسيّ الذي جَعَلَهُ يقول ما قال.

المطلب الثَّاني: باعث البيئة

إنَّ للبيئة تأثيرًا قويًّا في الإنسان وانفعالاته ومعاملاته، ويظهر ذلك من خلال كلماته والصور التي يتحدَّث عنها وفيها... وإنَّ بيئة الشاعر التي يعيش فيها (المكان والمجتمع والزمان) لها تأثير كبير في قوله للشعر، فالبيئة تؤثر في تشكيل الطبع والمزاج، فأهل البادية والصحراء لهم طبعُ الخشونة في أقوالهم؛ لأنَّهم يتعاملون مع جوّ الصحراء القاسي، ويتعاملون مع ما يعيش فيها من حيوانات، فنجدُ الشاعر يَعرِضُ صور هذه البيئة وما فيها في شعره، فقد أَلِفَ رؤيتها وخَبِرَ معالِمها وعَرَفَ طبائعها وعاداتها، بل صارَ صاحبًا لها، لذا يَسهُلُ عليه إعمالُ مَلَكَتِه الشعريَّة، لرسمِ الصورِ التي تخالِج عقله أو يتعامل معها أو يتخيّلها.. لذا فقد أحبَّ الشاعرُ العربيُّ البادية وما فيها، فتجِدُه يستنطقها في مفرداته التي تنمُّ عن إيحاءات نفسيَّة دفعتهُ إلى قولِها وإعمالِ مَلَكاتِ الإبداعِ الشعريّ فيها، ولقد كان جلُّ الشعراء يستعملونَ ثُنائيَّات الألفاظ المُعبِّرة عن هذا الباعث في أقوالهم.

فلو عُدنا إلى الشعرِ الجاهليّ لوجدنا الشّغل الشاغل لشعر الجاهليَّة هو البيئة وعلاقة الشعراء بها، ليس هذا فحسب، بل كُلَّما كان الشاعرُ مُتأثرًا ببيئتِه نجدُه مُبدعًا صادقًا في شعرِه، فهنا الشاعر امرؤُ القيس نجده قد تأثَّر بالبيئة المحيطة به، ونقلَ ذلك لنا عن طريق شعره عندما وصف النساءَ بالظباء وغيرِها من الحيوانات.

وكان الليلُ باعثًا قويًّا من البواعث النّفسيَّة التي تصوّرُ طولَ الليلِ وشِدَّة الهواجس فيه، فها هو امرؤُ القيس يشكو طولَ الليل واسوداده واشتداد الهموم عليه، فنجدُهُ يقول(شرح المعلقات السبع، تحقيق وشرح: مفيد قميحة: 68):

وليـــلٍ كمـــوجِ البحـــر أرخـــى ســـدولَهُ ... علـــيَّ بـــأنواع الهمـــوم ليبتلـــي

فقلـــتُ لـــه لمَّـــا تمطَّـــى بصُـــلبِه ... وأردَفَ أعجـــازًا ونـــاءَ بكلكـــلِ

ألا أيُّهـــا الليـــلُ الطويـــل، ألا انْجَلـــي ... بصـــبحٍ ومـــا الإصـــباحُ منـــك بأمثـــلِ

فنجد أنَّ الشاعر يُتابع الصور الليليَّة وكأنَّه يسوقُ الشَّكلَ مع ما يدلُّ عليه فنُّ البلاغة، وما يُفضي إليه إحساسه بثِقَلِ كابُوسِ الليل على صدرِه، ويجثُمُ على نَفَسِه، لشِدَّة أحزانِهِ، فيطولُ الليلُ ويتأخّر انبلاج الصبح، فكيون تأثيرُه النفسيّ حزينًا يجعله يجانِبُ الرقاد بمقدار تلبُّد الهموم في حنايا نفسه، ممَّا أذْهَبَ النوم من عينِهِ المُسْهَدة، فكان الليل هو الباعث والدَّافع لقوله الشّعر، فكانت الهموم والأحزان داءاتٍ وابتلاءاتٍ تصيبه.

ومن ذلك قول الشاعر العبَّاسي **محمود كُشاجم**(محمود كُشاجم، أبو نصر بن حسين (ت360هـ): شاعر وكاتب ومنجم، عمل لقبه من حروف ذلك، أصله من الرملة، له ديوان مشهور. [سير أعلام النبلاء: 286/16].) الذي يعشقُ الطبيعة ويَتفنَّنُ بوصفِ البيئة التي يعيشُ فيها، فنجدُهُ يلتفتُ إلى وصفِ البرقِ والسحاب والنجوم والكواكب، ويُصوّرُ الليل بأجمل اللوحات المُزيَّنة بالنجوم والبدر، إلَّا أنَّهُ يَصِفُ الليل بالمُرهِق والمُتعِب، والطويل عليه، فيقول(ديوان كُشاجم، محمود بن الحسين كشاجم، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م: 162):

ينـــــامُ الليـــــل أســـــهرُه ... وأشـــــكوهُ وأشـــــكرُهُ

وليـــــلُ الصـــــبِّ أطولُـــــه ... علـــــى المعشـــــوقِ أقصـــــرُه

فقد استعملَ الثنائيَّات الضدّيَّة الكثيرة في بيتينِ عبَّرَ من خلالهما عن حبِّه لليل وتعبه فيه، ففي الوقت الذي هو أَرِقٌ سَهِر يكون محبوبُه نائمًا هَنِئ البال، شاكيًا ألمه شاكرًا دواءه، فالبُعدُ عنهُ يُسبِّب السهر والتعب والألم، والقربُ منه يُداوي كُلَّ تعبه وبعده، لذلك سمَّاهُ بليل الصبّ الطويل عليه، أمَّا على محبوبته فهو قصير.

ثُمَّ يصفُ الغيثَ فيُشبّهه بالإنسان الذي يضحك فيبدو تارةً مبسوط الكفّ وتارة مقبوضها:

غَيْـــثٌ أَتَانَـــا مُؤْذِنًـــا بِخَفْـــضِ مُتَّصِـــلَ الوَبْـــلِ حَثِيْـــثَ الـــرَّكْضِ
يَقْضِـــي بِحُكْـــمِ اللهِ فِيْمَـــا يَقْضِـــي كَـــالْجَيْشِ يَتْلُـــو بَعْضُـــهُ لِـــبَعْضِ
يَضْـــحَكُ عَـــنْ بَـــرْقٍ خَفِـــيّ النَّـــبْضِ كَـــالْكَفِّ فِـــي انْبِسَـــاطِهَا والقَـــبْضِ
دَنَـــا فَخِلْنَـــاهُ فُوَيْـــقَ الأَرْضِ مُتَّصِـــلًا بِطُوْلِهَـــا والعَـــرْضِ
إِلْفَـــاً إِلَـــى إِلْـــفٍ بِسِـــرٍّ يُفْضِـــي ثُـــمَّ هَمَـــى كَـــاللُّؤْلُؤِ المُـــرْفَضِّ

في النّصّ استبشارٌ بالخير العميم، بمجيء الغيث، فالشاعرُ بدأَ نصَّهُ على صيغةِ الإخبار، من شدَّة فرحِه بنزول الغيث، والملاحظ أنَّ الشاعر استعملَ لفظة (غيث) ولم يقل مطر، لِما توحي إليها هذه اللفظة من التفاؤل والأمل على العكس من لفظة المطر بما فيها من دلالات الخير والشرّ، فنجده يُشبّهُ حبَّات الغيث بدُرر اللؤلؤ، فيستعملُ الثنائيَّات المُتضادَّة في وصفِهِ (الخفض- الركض، الانبساط- القبض، الطول- العرض)، ليُعطي صورةً حيَّةً واقعيَّةً عن الغيث وكأنَّهُ أمامه، وهذا الغيث جاء كالدواء للأرض والنفوس المريضة، فحلّ عليها؛ ليبعث فيها الرَّاحة والطمأنينة، وفي الأرض تغيُّر لونها وحالها من الجدب والقحط لتنمو وتخضرّ من جديد، فالشاعر استعان بالبيئة فأخذ منها صورة نزول الغيثِ وصورة تجمّع الجيش، فهي قريبةٌ للمتلقّي من حيثُ الصورة والهيئة التي شكّلت بواعث رئيسيَّة في بناء تجربته الشعريَّة.

وإنَّ للأماكن تأثيرًا باعثًا في نفسيَّة الشَّاعر، فالجبال والوهاد والأنهارُ والبحورُ لها تأثيرٌ وباعثٌ في نفسيَّة الشاعر، يصفُ الشاعر محمود كشاجم نهر قويق الذي يمرُّ في حلب شتاءً وربيعًا، ويصفُ كيفَ يصطادُ منه الناس السَّمكَ، ويُعطي البيئةَ جمالًا وروعةً فيصفُها في أبياتِه، فإذا حلَّ الصيفُ جفَّ النهر، فيُشبّهُ دورانَ مجيء الماء وانقطاعه بدورة البركار الهندسيّ، فيقول(يتيمة الدهر: 248/1. نهاية الأرب: 318/3. وبركار: ((آلَة مركبة من ساقين متصلتين تثبت إِحْدَاهمَا وتدور حولهَا الْأُخْرَى ترسم بهَا الدَّوَائِر والأقواس وَيَقُولُونَ لَهُ أَيْضا بركار وفرجار))[المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، دار الدعوة، القاهرة: 47/1]):

إِذَا مَـــا اســـتَمَدَّ قُوَيْـــقُ السَّـــمَاءِ بِهَـــا فَأَمَدَّتْـــهُ أَمْطَارُهَـــا
وَأَقْبَـــلَ يَـــنْظِمُ أَنْجَادَهَـــا بِفَـــيْضِ المِيَـــاهِ وَأَغْوَارَهَـــا
وَأَرْضَـــعَ جَنَّاتِهَـــا دَرَّةٌ فَعَمَّـــمَ بِـــالنُّورِ أَشْـــجَارَهَا
وَدَارَ بِأَكْنَافِهَـــا دَوْرَةً تُنْسِّـــي الأَوَائِـــلَ بَرْكَارَهَـــا

كَـــــأَنَّ هَلُوكًـــــا حَبَتْهَـــــا السِّـــــوَا رَ أَوْ سَـــــلَبَ الكَـــــفَّ أَسْـــــوَارَهَا

وفي الأبيات ثُنائيَّات ضدّيَّة يصفُ الشاعرُ من خلالها دورةَ الزمن بالنسبةِ لهذا النهر، فهو (يفيض- يغور) وهو (يرضع- يُعمّ)، فنراهُ يصفُ هذا النهر وصفًا رائعًا، جاعلًا منه رمزَ عطاءٍ وكرم؛ أي عندما تمدّهُ السماء بالأمطار فتفيضُ مياهُه على الأنجاد، لينظُمها خُضرةً ورياضًا، ثُمَّ إذا جاءت دورةُ البُخل، حيثُ تبخلُ السماءُ عليه، فيصير كالمريض الهالِك، أو المرأة المُتزيّنة بالأسورة، ثُمَّ يأتي من يسلبها إيَّاه فتصيرُ حزينةً مَكلومة، فقد شبَّه الدَّاء بالجفاف، وشبَّه الدواء بفيضان الماء، فالشاعرُ اعتمدَ على الطبيعة بنقلِ الصورة من حالِ عدم نزول الغيث وجفاف الأرض وانحباس المطر وانقطاعه، ويدلُّ هذا على الجدبِ والقحط الذي يُشبه حالَ المريض الذي ينتظر الدواء.

كذلك يُعدُّ الزمان جزءًا من البيئة التي يكون فيها الشاعر، فالليل -بهدوئه وكواكبه- له تأثير ودافع في نفسيَّة الشاعر، والنهار -بضجيجه ومعاركته الحياة ومعاشرته الناس- يُعَدُّ باعثًا في صياغة المعاني الشعريَّة، فكم من شاعر كان يفتخر برعي النوق في الصحراء، وكم من شاعر عانى آلام البعد والفراق، فأرّقه الليل، وانتشت عنده قريحة الشعر، وكأنَّها وحيٌ يكلِّمه، فيبثُّ همومَه وآلامه بكلماتٍ سطّرها شعرًا لتدُلَّ على أنواع مشاعره.

المطلب الثَّالث: باعث الشكوى

الشكوى باعثٌ شديد لكتابة الشعر وجُودَتِه ((يستعمل الاشتكاء والشكوى في المَوجَدَةِ والمرض، وهو شاكٍ؛ أي مريض))(معجم العين، (شكوَ): 388/5).

وتكون الشكوى للتعبير عن آلام الإنسان وهمومه، ممَّا يعانيه من مصاعب الحياة..

والشكوى في الاصطلاح الشرعيّ إظهار البثّ(المفردات في غريب القرآن: 266)، ومنه قوله تعالى: ﴿ القِيَامَةِ الإِنسَانِ المُرسَلَاتِ النَّبَإِ النَّازِعَاتِ عَبَسَ التَّكوِيرِ الانفِطَارِ المُطَفِّفِينَ الانشِقَاقِ البُرُوجِ الطَّارِقِ الأَعلَى الغَاشِيَةِ ﴾ [يوسف: 86]، والبثُّ بمعنى التوجُّع والألم والحزن أو المرض والهم والإخبار بسوء الفعل به.. وقد تكلَّم عنها علماء النفس وأسهبوا لأنَّ الحياة تعاني المصاعب، فيكون الاشتكاء وبثّ الشكوى له ألوان وتعابير كثيرة وقد تتنوَّع أحواله، والشكوى تكون خاصَّة، تخصّ كلّ إنسان مألوم أو مهموم أو محروم، أو تكون عامَّة فيها ذمّ الدنيا أو الزمان أو المكان أو الظرف الذي يعيش فيه، فكم من مظلوم كتب ظُلامته شعرًا فأجاد، وكم من مريض كتب عن دائه شعرًا فأجاد، وكم من عاشقٍ كتب عمَّا يعانيه من لوعة الفراق والبعد والهَجْر فأجاد، وكم من محبوس أعمل شِعره في همّه وضيق ما حوله وتقييد حريته فأجاد.

ومن خلال ما مرَّ من ذكر لأسباب الشكوى نجد أنَّها من أهم الفنون الشعريَّة وأصدقها، فهي تصوِّرُ نفسيّة الشاعر وترسم عواطف الناس تجاه أمرٍ ما، والقضايا الإنسانيَّة تتعدّدُ فيها الشكوى والهموم التي تضطر الإنسان لقول الشعر، فيخرج بعض همومه ومكنونات نفسه ليريح جزءًا منها(العقد الفريد: 443/1. (قول أبي تمَّام)):

شـكوتُ ومـا الشّـكوى لِنَفْسِـي عـادةٌ ولكـن تفـيضُ الـنفسُ عنـد امتلائهـا

ومَنْ يتأمَّل صورة شاعر يشكو همَّه بأبياتٍ، يجدُ أنَّهُ يبثُّ ما في نفسه من آلام وأدواء، وتعدُّ الشكوى نوعًا من الشفاء لها (العقد الفريد: 203/2):

تَعِـبَ الهـوى بمعـالمي ورسـومي وذُفِئْـتُ حيًّـا تحـت ردْمِ همـومي

وشَـكَوْتُ هَمِّـي حـين ضِـقْتُ، ومَـن شـكا همًّـا يَضـيقُ بـه فغيـر ملـومِ

هذا ما قاله أبو الحسن بن محمَّد البصري **الماوردي(الماوردي)**، علي بن محمد بن حبيب الشافعي البصري، قاضي القضاة (تـ445هـ): فقيه وشاعر وأديب، من مؤلفاته: "أدب الدنيا والدين"، "الأحكام السلطانيَّة"، "تفسير القرآن"،... [سير أعلام النبلاء: 64/18]) شاكيًا حزنه واكتئابه وألمه من داء الهموم، رغم أنَّه كان أكبر قضاة الدولة العبَّاسيَّة وفقهاء الشافعيَّة، وله من المصنفات الكثيرة في البصرة، وقد عاش بداية حياته بفقر مدقع وكان أبوه يعمل ببيع ماء الورد لذا قيل الماوردي، إلَّا أنَّه صار معتزليًّا فضُيِّقَ عليه (نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، دار الكتب العلميَّة، بيروت: 187/2)، فاستعمل ثنائية (الدفن والحياة) للتعبير عن مدى ألمه.

والهمُّ من الأدواء النفسيَّة التي تبعثُ الألمَ المعنويَّ في الإنسان، يقول الماوردي(يتيمة الدهر: 344/1. الترياق: دواء السموم):

لمَّـا رأيـت الهـمَّ يطـرقُ مـن أتـاه بـلا سـلام

ضـيفٌ يـزور فلـيس يـأ كُـلُ غيـر لحمـي والعظـام

والـدهرُ قـد حمـل السـلا ح علـى الكـرام عـن اللئـام

داويتُـهُ بـالراح إنَّ الـراح ترياقُ الكـرام

وهذه من باب الشكاية من أدواء الحياة، فهي أبياتٌ تزخر بالثنائيَّات التي تقصد الداءات الكثيرة وعلاجاتها، ففي البيت الأوَّل يتحدَّث عن أشدّ ألم وداء يُصيب الإنسان وهو الهمّ الذي يأتيه دون استئذان فيأكل حشاشة القلب ويُضعِفُ الجسم ويُهزِلُه، ويتكئُ الشاعر على فنّ الاستعارة بوصفه لدهرياته، فيجعل الدهر –حسب قوله– ظالمًا يحملُ السلاح ليصيب به الكرام مُبتعدًا عن اللئام، فجاءَ بهذا الوصف على

سبيل الاستعارة المكنيَّة، فنجدُه يستعير ألفاظ المُجّان الذين يُداوون همومهم بالابتعاد عن الحياة، فشفاء المهموم شرب الخمر التي تنسيه أهله، فالخمر –كما قال– ترياق أيّ شفاء الكرام من الهموم، فكان الباعث النّفسيّ إلى قول هذه الأبيات ليس الرد على الوأواء فحسب، بل يقولها بشيء من الشكوى كما اشتكى الوأواء الدمشقي، ثُمَّ يتحدَّث عن علاج الداء بالخمر..

فقد استعان الشاعر في إبداع كلماته وتراكيبها بالبيئة التي هو فيها، وتعدُّ هذه البيئة باعثًا لكتابته الألفاظ التي تشكِّل دلالات نفسيَّة، تتغيَّر هذه الدلالات حسب تغير البيئة التي تؤثر في نفسيته، فنجد أنَّ الكثير من أشعار الجاهليين كانت معبِّرة عن واقعهم وعن آلامهم وعن آمالهم، وحين أبدع الشاعر الجاهلي كان أول إبداعه وصف البيئة التي يعيش فيها، فكَثُرت في أشعارهم أسماء الحيوان أو أسماء النبات أو أسماء السيف أو أسماء الوقائع والحوادث... وذلك لتأثرهم بما حولهم، فنجد وصفهم للبيئة حولهم.

وإنَّ الكثير من الشعراء تجسّدت في أشعارهم الحالة النفسيَّة التي كان دافِعُها وباعثها البيئة المُحيطة بهم، وقد كتب في هذا الأمر الكثير، منهم ابن **قتيبة الدينَوَريّ** (ت276هـ) في كتابه "الشعر والشعراء"، فقد تحدَّث عن حالة الشاعر النفسيَّة وعن مزاجه وعن تأثيرها في شعره، وعن ذكر الدوافع والبواعث التي تدفع على قول الشعر، كما وتحدَّث عن معوقات قوله الشعر، كأن يطرأ أمرٌ أو عارضٌ على فطرة أو مزاج الشاعر فيقلبه، مثل الفقر وسوء المعيشة وتراكم الهموم.

وتعدُّ الشكوى من الفقر ومن الدهر ونكباته من أهمّ أنواع الشعر الاجتماعي في العصر العبَّاسي الثَّالث، وقد سمَّى بعض الأدباء هذه الأشعار التي تتناول الفقر والشكوى من الدهر بـ"الدهريات" (الدهريَّات: هي الشكوى من الدهر، وقد نشأ هذا النوع من الشعر في القرنين الهجريين الثَّاني والثالث، حينما يبثُّ الشاعر شكواهُ من الدهر وما حلَّ به من نكبات. [فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، مصطفى الشكعة، عالم الكتب، بيروت، 1981م: 371])، واتسعت دائرة التأفُّف والتبرُّم والشكى آنئذ: ((شاعت مع الفخر، الشكوى من الدهر ومن الناس والشكوى قديمًا، غير أنَّها اتسعت في هذا العصر سعة شديدة، لِمَا شاع فيه من كثرة البؤس والضنك في حياة الشعب فضلًا عن الشعراء))(تاريخ الأدب (العصر العبَّاسي الثَّاني): 596).

يقول **مهيار الديلمي (مهيار الديلمي** (ت428هـ) مهيار بن مرزويه، أبو الحسين الدَّيلمي: شاعر، في معانيه ابتكار. قال الحرّ العامليّ: جمع مهيار بين فصاحة العرب ومعاني العجم.. وهو فارسيُّ الأصل، من أهل بغداد. [الأعلام: 317/7]) يمدح وزيرًا في عيد النيروز ويشكو له الحال(ديوان مهيار الديلمي، دار الكتب المصريَّة، القاهرة، ط1925/1: 329/3. العُرام: شدة العيش):

أشـــتكيكم وإلـــى مـــن أشـــتكي؟ أنـــتمُ الـــداء فمـــن يشـــفي السـقاما

أنـــتمُ والـــدهرُ ســـيفٌ وفـــمٌ مـــا تمـــلَّانِ ضِـــرَابًا وخِصـــاما

كلمـــا عاتبـــتُ فـــي حَظِـــيَ دهـــري زاده العتـــب لَجاجًـــا وعُرامـــا

فنُلاحظه يشتكي لهم، ثُمَّ يهجوهم ويذمّهم بأنَّهم هم سبب ما فيه من الفقر والهمّ والبؤس ويصفهم بالـ(داء)، ثُمَّ يمتعض منهم متسائلًا أين يجد شفاء هذا الداء والسقم؟ فكان مُعبِّرًا عن الفقر وسببه بالداء وعن العطاء والبحبوحة في العيش بالشفاء، وكان كلُّ هذا باعثًا له لإنشاد الشعر.

ونلاحظ أيضًا وجود أنواع كثيرة من البلاغة في قولِ الشاعر –كُشاجم– وقد استعملَ التشبيه البليغ (أنتم والدهرُ سيفٌ) فقد حذفَ أداة التشبيه ووجه الشبه إيجازًا منه بالوصفِ.

ثُمَّ يقول –مهيار الديلمي– في مكانٍ آخر من ديوانه، شاكيًا غدرَ أصدقائه له، رغم أنَّه يُعاملهم بوفاء، فنراهُ حزينًا مُتألِّمًا من داء الغدر الذي لاقاهُ منهم، فصاروا بصورةِ أعداء، وفي ذلك يقول(ديوان مهيار الديلمي: 155/1):

كيـف اعترافـي بالصـديق وكيـف لـي بـالفرق بـين محبّتـي مـن بغضـتي

وقلـوبُ أعـدائي الـذين أخـافهم مغلولـةٌ لـيَ فـي جسـوم أحبّتـي

رَقـص السـرابُ فراقنـي مـن راقـصٍ كَشَـرَتْ مودّتـهُ وراءَ الضـحكةِ

ورأيـتُ فـاغرةً ظننـتُ كُشُـورَها طلبًـا لتقبيلـي فكـان لنَهسـتي

ولـدَ الزمـانُ الغـادرين فمـا أرىَ أمّ الوفـاء سـوى المقـلِّ المُقِلـتِ

وهزلـتُ أن سـمنَ اللئـامُ وإنَّمـا ذلُّ المطـامع حـزَّ عـزةَ جـوعتي

ولكـلِّ جسـمٍ فـي النحـول بليـةٌ وبـلاءُ جسـمي مـن تفـاوتِ همّتـي

نجد هذا النّصّ يدور في فلك الثنائيَّات التي حملت فيها دلالات ومعاني عديدة، فنراهُ يُكثر من الثنائيَّات المُتضادَّة والتي تدلُّ على باعثٍ نفسيٍّ دفَعَهُ لإبداعِ هذه الأبيات؛ لوصفِ شكايَته من أصدقاءٍ غُدْرٍ، وهو بهذا يُمثِّلُ باعِثَ الحزنِ كما كانَ أستاذُه **الشريف الرّضيّ (الشريف الرضيّ** (ت406هـ): محمَّد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن الرضيّ العلوي الحسيني الموسوي، من أحفاد الحسين بن علي، أشعر الطالبيين، شاعرٌ وأديبٌ، من كتبه: (ديوان شعر، المجازات النبويَّة،...). [الأعلام: 99/6]) الذي اصطبغ شعره برنّة الأسى والشكوى، فصارَ الاثنان –الشريف الرضي والديلمي– مشهورينِ بصبغةِ الشكوى والسخط على المجتمع الذي يعيشانِ فيه، فقد احتارَ الشاعر في محبّتِه التي يُعطيها لأصدقائه،

فيُلاقونه بالبغض والكراهية والحقد، فيجدُ قلوبَهُم قلوبَ أعداء يخافُهم ويحذرهم بصورةِ أجسامٍ مُحِبَّة، فيجدُ ضحِكَهم نفاقًا يُخفي حقدًا، وهو يُريدُ أن يُعطيهم الجميل، فيُقابلونه بالنَّهش والعداوة.

وهو أيضًا وفيٌّ معهم، فيتولَّد من هذا الوفاء كلُّ أنواع الحب، بينما هم غادرون مُبغضون، كالمرأة التي لا تَحمِل إلَّا الحقد وغير قادرةٍ أن تحمل الولَد، وهو يقول عن نفسه أنَّه يهزَلُ جوعًا وهو عزيز، بينما هم أذلَّاء يسمنون بطمعهم ولُؤمهم، وبذلك نجدُه قد وُفِّقَ بتوظيف ثنائيَّة الدَّاء والدواء، من خلال المعنى وليس باللفظ الصريح، وما ساهم في تعميق رؤية الشاعر لدلالاتها هو تضافرُ عنصري الصوت والمعنى، ما أدَّى إلى خلق جوّ دلاليّ وإيقاعي قادر على الانسجام مع الوظيفة التداوليَّة للخطاب، إذ استطاعت أن تكشف عن حالة الانكسار النفسيّ والحزن العميق، وهي تتناسب مع القافية المكسورة (يُنظر: البنى الأسلوبيَّة في شعر النابغة الجعدي، د. ياسر أحمد فيَّاض، م.م مها فوَّاز خليفة، مجلّة جامعة الأنبار للعلوم الإسلاميَّة، عدد:4، مجلد: 1، 2009م: 355).

فهذه الأبيات تُطلِعُنا على حصيلة تفكير الشاعر العميق في أحوال الناس وأعرافهم وسلوكهم، فضلًا عن ذلك تطالعنا على حصيلة ثقافة الشاعر التي اكتسبها من روافدِ عصره المتعدّدة.

ونلاحظ أيضًا أنَّه استعملَ بعض فنون البلاغة والتي منها الاستعارة المكنيَّة، حيثُ شبَّه السرابَ بالراقص الفَرِح الذي يُخفي وراءه الحقد والغدر. ثُمَّ شبَّه الزمان بامرأةٍ ولَّادَة، فالسراب لا يرقُص والزمان لا يلد إلَّا أنَّه بهذا يبالغُ في وصفهم.

وهذه أبياتٌ مُقتطفة من قصيدتِه التي وُسِمَت بعنوان "ما أنكرَت إلَّا البياضَ فصدّتِ"، وتُمثِّلُ نتاجَ باعثٍ نفسيّ يُمثِّل الشكوى من المجتمع، فيعطي الوفاءَ لأصدقائه ويُعطونه الغدر.

المطلب الرَّابع: باعث الرغبة والطمع

يُقصد بالرَّغبة الحصول على شيء، ويُقصد بالطمع حُبُّ الحصول على شيء كمالٍ أو منصب، والإنسان بطبعه ميَّالٌ إلى هذه الأمور فيرغب بالحصول عليها، وطبيعة الشعراء –كما غيرهم– أن يحاولوا الحصول على أمرٍ عن طريق شعرهم، وهذا دافعٌ قويّ: ((أقوى ما يكون الشعر عندي على قدر قوَّة أسباب الرغبة والرهبة))(العقد الفريد: 326/5)، وإنَّ أوَّل أمر يستجديه الشاعر بشعره هو المدح(ينظر: العمدة: 120/1) والشكر، والذي يعدُّه العرب غرضًا من أغراض الشعر العربي.

وهكذا الكثير من الشعراء القدامى والمُحْدَثين نجد عندهم هذا الباعث المهمّ –الرغبة والطمع– فمتى وُجِدَ كان الشاعر مُجيدًا لقوله ومُستنزلًا إيَّاه مكانه في المدح أو الغزل أو الحماسة.

وقد كان الباعثُ النفسيّ عند الكثير من الشُعَرَاء لقولهم وإبداعاتهم، حبَّ المال والمنصب والمدح والذِكْر، مُمتزجًا شعرُهم بكِبْرٍ وعُجْب، نأخذ **أبا الطيب المتنبّي(المتنبّي** أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكوفي الكندي، **أبو الطيب** (ت354هـ): الشاعر الحكيم، نشأ بالشام وطلب الأدب واللغة في البادية، وحين بلغ في الشعر شأوًا وتبعه الكثيرون فكاد أن يستفحل أمرُهُ سَجَنَهُ "**لؤلؤ**– أمير حمص ونائب الأخشيد"، وتاب ورجع عن دعواه، ثُمَّ وفد على سيف الدولة الحمداني (صاحب حلب–337هـ) ومدحه وحظي عنده، ثُمَّ سافر إلى مصر ليمدح كافور الإخشيدي، وطلب منه توليته فرفض، فغضب وهجاه وانصرف إلى بلاد فارس فالتقى بابن العميد وبعضد الدولة ثُمَّ عاد إلى العراق وقتل في الطريق عند بغداد. [وفيات الأعيان، ابن خلكان: 1/120–121]) مثالًا، حيثُ كان شهيرًا في شِعرِه، ذائعًا في صيته، ويُعدُّ حقًّا "مالئ الدنيا وشاغل الناس"؛ فقد قال الحكمة وقال الأدب، والذي كثُرت دراسات أشعاره كشخصيَّة أدبيَّة اجتماعيَّة فذَّة. كان يمدحُ كُلَّ مَنْ يلتقيهِ من أمراء وعلى رأسهم سيف الدولة الحَمَدانيّ(**سيف الدولة الحمداني** (ت356هـ): علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي، أبو الحسن، صاحب المتنبي وممدوحه. يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر. هو ملك واسط ودمشق وحلب وتوفي فيها. وقائعه مع الروم كثيرة، وهو أوّل من ملك حلب من بني حمدان. وله أخبار كثيرة مع الشعراء، خصوصًا المُتنبي والسري الرفاء والببغاء والوأواء وتلك الطبقة. [الأعلام: 4/304])، لِمَا رأى من كرمه وهو جريحٌ بعد خوضه معركة ضدَّ الروم(العمدة، ابن رشيق: 1/100. حيثُ قال: (جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس)):

يا أكرم الأكرمينَ يامَلِكَ الأملا	**ك طُرًّا يا أصيد الصِّيدِ**
ورَميُكَ الليلَ بالجنود وقدْ	**رَمَيْتَ أجفانهم بتسهيدِ**
فصبَّحتهم رِعَالُها شُزَّبًا	**بينَ ثُباتٍ إلى عباديدِ**
سقِيمُ جسمٍ صحيح مكرمةٍ	**مَنجُودَ كربٍ غياثَ منجود**

وهنا يُلاحظ العارف بمعاني الألفاظ كيف وظّف المُتنبّي الثنائيَّات الضدّيَّة؛ ليدلَّ على كرم وشجاعة سيف الدولة، فهو يصفه بأنَّه رغم جراحاته التي أصابته فأسقمته، إلَّا أنَّه لم يفتر بصحته عن نجدة المكروب وغوث وإكرام المستنجد. فكانت هذه الثنائيَّة الضدّيَّة (السقم–الصحَّة) دلالة على وصف كرمه، وباعثًا لاستجداء العطاء من الخليفة، وقد استعملَ الاستعارة التصريحيَّة في قوله: (ورَميُكَ الليلَ بالجنود وقدْ، رَمَيْتَ أجفانهم بتسهيدِ) فالليلُ والأجفانُ لا تُرمى إلَّا أنَّه تشبيهٌ بالرمي غابَ المُشبَّه به ووجه الشبه، وأمَّا كثرة الصفات التي وضعها لسيف الدولة (مَنجُودَ كربٍ غياثَ منجود) فهي دليلُ مُبالغةٍ منه في مدحه واستعطافِهِ.

والمتنبّي كان في طبعه جفاء وغلظة، والكثير من الأدباء يصفونه بالمتكبّر، وكان العُجْبُ دافعًا لقوله الكثير من القصائد التي يتعالى بها ويفتخر بنفسه، وقد وصَفَه بذلك ابن رشيق بقوله: ((وأمَّا أبو الطيب المتنبي فكان في طبعه شدَّة وفي عتابه غلظة، وكان كثير التحامل ظاهر الكبر والأنفة))(العمدة: 112/2) ، وله أبياته التي يُلامُ عليها(شرح ديوان المتنبي: 361/1):

وَمـــا الـــدَهرُ إِلّا مِـــن رُواةِ قَصـــائِدي ... إِذا قُلـــتُ شِـــعرًا أَصـــبَحَ الـــدَهرُ مُنشِـــدًا

أَجِزنـــي إِذا أُنشِـــدتَ شِـــعرًا فَإِنَّمـــا ... بِشِـــعري أَتـــاكَ المـــادِحونَ مُـــرَدَّدا

وَدَع كُـــلَّ صَـــوتٍ غَيـــرَ صَـــوتي فَـــإِنَّني ... أَنـــا الصـــائِحُ المَحكِـــيُّ وَالآخَـــرُ الصَـــدى

ونلاحظ في البيت الأخير كيف كانت ثُنائيَّة (الأنا– الآخر) وهي مُتضادَّة، تعملُ عملها كِبرًا وعُجْبًا، والكِبرُ يُعدُّ من أشدِّ الأمراض النفسيَّة فتكًا بصاحبِهِ، فهو داءٌ جعلَ سيفَ الدولة الحمداني يمقُتُ المتنبّي ويُحاول إبعادَه عنه: ((وقد كان المتنبّي يشترطُ على سيف الدولةِ ألَّا يُنشِدَ أمامه إلَّا قاعدًا، وأنَّه يدّعي امتناعه عن مدحه غير الملوك))(يتيمة الدهر: 136/1).

وإنَّ المتأمِّل في كثير من أشعار المُتنبّي، يجدُ أنَّها مُصطبغةٌ بالكِبْر، وتدلُّ على أنانيةٍ ومرضٍ نفسيّ، لا يشفيهِ إلَّا بثُّه للشعر، إن كان مادحًا أو مُتفاخرًا، فالشهرةُ والمكانة التي حازها قُرب سيف الدولة، مع انطلاقِ لسانِه، جعلَ أبياته تقطرُ كِبْرًا وعُجْبًا يُؤخذُ عليه... فما هذا المرضُ الذي أصابه من عُجْبٍ وغرور إلَّا باعثًا نفسيًّا قويًّا في شعره، ومن ذلك قوله(شرح ديوان المتنبي: 46/2–47):

مـــا مُقـــامي بِـــأَرضِ نَخلَـــةَ إِلّا ... كَمُقـــامِ المَســـيحِ بَـــينَ اليَهـــودِ

لا بِقَـــومي شَـــرُفتُ بَـــل شَـــرُفوا بـــي ... وَبِنَفســـي فَخَـــرتُ لا بِجُـــدودي

إِن أَكُـــن مُعجَبًـــا فَعُجـــبُ عَجيـــبٍ ... لَـــم يَجِـــد فَـــوقَ نَفسِـــهِ مِـــن مَزيـــدِ

أَنـــا تِـــربُ النَـــدى وَرَبُّ القَـــوافي ... وَسِـــمامُ العِـــدا وَغَـــيظُ الحَســـودِ

أَنـــا فـــي أُمَّـــةٍ تَـــدارَكَها اللَـــ ... ـــهُ غَريـــبٌ كَصـــالِحٍ فـــي ثَمـــودِ

قال الأبيات فسُئلَ: ((لماذا تُلقّب بالمتنبّي؟! فقال لأنَّني قلتُ هذه الأبيات))(يتيمةُ الدهر: 142/1)، والنّاظرَ في الأبيات يرى ادّعاءهُ شَبَهَهُ المسيح بين اليهود، وأنَّهُ غريبٌ كصالح في ثمود، يدلُّ على سبب تسميتِه.

فهنا نرى أنَّهُ يفتخرُ بنفسِهِ مُستعملًا ثُنائيَّةً مُتضادَّة (ترب– سمام)، فهو تِربٌ لِمَن يمدَحُه ويُحِبُّه، مِن أقرانِه وأصدقائه، وهو أيضًا سِمامٌ وغيظٌ لحاسديهِ وأعدائه، وقد بلغَ مِن ((كِبرِ نفسه وبُعدِ همّتِه أن دعا إلى بيعته قومًا من رائشي نبْلِهِ))(م.ن: 140/1).

وقد بلغَ من كِبْر المُتنبّي أنَّه ذمَّ بعض الشعراء، ولم يعترف بهم(شرح ديوان المتنبّي: 61/2):

أَرى المُتَشـــــاعِرينَ غَـــــروا بِـــــذَمّي وَمَـــــن ذا يَحمَـــــدُ الـــــداءَ العُضـــــالا

وَمَـــــن يَـــــكُ ذا فَـــــمٍ مُـــــرٍّ مَـــــريضٍ يَجِـــــد مُـــــرًّا بِـــــهِ المـــــاءَ الـــــزُلالا

فهنا يتّهمُ الشعراء الذين يذمّونه بأنَّهم مرضى ذوو داءٍ عُضال، وأنَّهم لا يقولونَ إلَّا ما يدلُّ على مرضِهم، حتَّى لو شربوا الماء الزُلال، الشَّافي الصَّافي الذي ينقلبُ إلى مُرٍّ في أفواهِهم المريضة، فهُنا نجدُ الشَّـــــاعر يســـــتعملُ ثُنائيَّـــــةَ (المُـــــرّ– الـــــزلال)، فهنـــــا أخـــــذَ الشـــــاعر –المتنبي– صورةً ذوقيَّةً ليُعبِّر بها عن ذمِّه لِمَن يتكلَّمُ فيهم، فيجعلُ لفظ الثنائيَّة الأول داءً، واللفظ الثاني دواءً، وهذا يدلُّ بوضوحٍ على الباعث الذي دفعهُ لقولِ هذه الأبيات.

الخاتمة:

وممَّا سبق نعرفُ أنَّ الشعر في هذا العصر كان انعكاسًا للواقع المُعَاش؛ لأنَّ أحاسيس الشعراء وانفعالاتهم النفسيَّة تستنطق واقعهم الذي يعيشونه والذي يستثير فيهم الإسقاطات النفسيَّة، هو الباعث ليظهر عندهم عنصر الإبداع، لذا سمّي الشاعر لشعوره، فيكون قوله ناطقًا بما هو فيه، فتارةً يعبِّر عن حرمانه من أمر، وتارة يُعبِّر عما حُرِمَه، فيكون كلاهما الداء والدواء.

لذا فإنَّ الشعر يعدُّ مرآة الواقع والحياة، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالبيئة التي يعيشها الشعراء، فقد كان هذا الواقع هو الباعث الأساسيّ النفسيّ لقولِ الشعر عندهم.

المصادر

- ❖ The tendency of belonging at the forefront of the poem in the Islamic era Omar bin Laja Al-Tamimi (model(A.M..Dr.Abd Mhmood Abd Bishr Journal of Tikrit University for Humanities (2023) 30 (7) 148-163
- Al-A'lam, Khair al-Din al-Zirakli, Dar al-Ilm Lil-Malayin, Beirut, 15th edition, 2004 AD.
- Al-Omda fi Mahasin al-Sha'ar, Ibn Rasheeq, investigation: Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, Dar al-Jil, Beirut, 4th edition/1972 AD.
- Al-Omda fi Mahasin al-Sha'ar, Ibn Rasheeq, investigation: Muhammad Muhyi al-Din Abd al-Hamid, Dar al-Jil, Beirut, 4th edition/1972 AD.
- Biography of the Flags of the Nobles, Al-Dhahabi, investigation: a group of investigators under the supervision of Shuaib Al-Arnaout, Al-Risala Foundation, 3rd Edition/1985 AD.
- Deaths of Notables and Sons of Time, Ibn Khalkan, investigation: Muhyiddin Abd al-Hamid, Arab Renaissance Library, Cairo, 1950 AD.
- Deaths of Notables and Sons of Time, Ibn Khalkan, investigation: Muhyiddin Abd al-Hamid, Arab Renaissance Library, Cairo, 1950 AD.
- Definitions, Ali Al-Jurjani, investigation: Ibrahim Al-Abyari, Cairo, Dar Al-Rayyan, 1938 AD.
- Diwan Al-A'sha, edited by Muhammad Mahmoud Hussein, Dar Al-Nahda, Beirut, 2nd edition, 1972 AD.
- Diwan Kushajim, Mahmoud Bin Al-Hussein Kashajim, investigation: Al-Nabawi Abdul Wahed Shaalan, Al-Khanji Library, Cairo, 1997 AD.
- Diwan Mahyar al-Dailami, Dar al-Kutub al-Misriyah, Cairo, 1st edition 1925: 3.
- Explanation of Al-Mutanabi's Diwan, compiled by: Abd al-Rahman al-Barqouqi, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, 2nd edition/1986 AD
- Explanation of the Seven Commentaries, edited and explained by: Mufid Qamiha, Dar Al-Hilal, 1st edition, 1988 AD.
- History of Literature (The Second Abbasid Era): 596.
- Liberation and enlightenment, Al-Taher bin Ashour, the Tunisian Publishing House, Tunis, 1/1984 edition.
- Lisan al-Arab, Ibn Manzur, Dar Sader, Beirut, d.d., d.d. M.N.: 1/140.
- Minhaj al-Balgha wa Sharh al-Adaba', Hazem al-Qartajani, investigation: Muhammad al-Habib ibn Khoja, Tunisia, 1966 AD
- Nihayat al-Arb fi Arts al-Adab, Al-Nuwairi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut
- Psychological Interpretation of Literature, Ezz El-Din Ismail, Dar Al-Awda, Beirut.
- Stylistic structures in the poetry of Al-Nabigha Al-Jaadi, Dr. Yasser Ahmed Fayyad, MD, Maha Fawaz Khalifa, Anbar University Journal of Islamic Sciences, Issue: 4, Volume: 1, 2009 AD.
- The Arts of Poetry in the Hamdanid Society, Mustafa Al-Shakaa, World of Books, Beirut, 1981 AD.
- The Book of Two Industries, Abu Hilal Al-Askari, investigation: Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim - Muhammad Ali Al-Bajawi, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Beirut, 2/1971 AD.
- The indexed dictionary of the words of the Holy Qur'an, Muhammad Fouad Abdel-Baqi, Dar Al-Maarifa, Beirut, 10/2015 edition.

- The Intermediate Dictionary, a group of authors, Dar Al-Da’wa, Cairo.
- The orphan of time in the virtues of the people of the era, Abu Mansour Al-Tha'alabi, explanation and investigation: Mufid Qamiha, Dar Al-Kutub Al-Alamiyyah, Beirut, 1/1983 AD. Nihayat al-Arb fi Arts al-Adab, Al-Nuwairi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut.
- The Unique Contract, Ibn Abd Rabbuh, Dar Al-Hilal, presented by: Khalil Sharaf Al-Din, 2nd edition, 1990 AD.
- Vocabulary in Strange Qur’an